صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

المجلد الثالث

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بين يدي السورة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية « التوحيد ، الرسالة ، البعث » لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ـ المعجزة الخالدة ـ الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلةٍ مباركة من أفضل ليالي العمر هي « ليلة القدر » وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تُفصَّل وتدبَّر فيها أمور الخلق ، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأنهم في شكٍ وارتياب من أمره ، مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ؛ وأنذرتهم بالعذاب الشديد .

* ثم تحدثت عن قوم فرعون ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام ، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم ، من قصور ودور ، وحدائق وبساتين ، وأنهار وعيون ، وعن ميراث بني إسرائيل لهم ، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله .

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش ، وإنكارهم للبعث والنشور ، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسول ، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية ، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين .

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار ، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار .

التسمية : سميت « سورة الدخان » لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار ، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا ، ثم نجّاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ .

قال الله تعالى: ﴿حمۤ * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة. . إلى. .وما كانوا منظرين﴾ من آيه (١) إلى نهاية آية (٢٩) .

اللغة : ﴿يُفرق﴾ يُبيَّن ويُفصَّل ﴿ارتقب﴾ انتظر ﴿يغشى﴾ يغطي ويحيط ﴿نبطش﴾ نأخذ بشدة وعنف ﴿فتنَّا﴾ ابتلينا وامتحنا ﴿تعلوا﴾ تتكبروا وتتطاولوا ﴿عُذت﴾ استجرتُ والتجأت إلى الله ﴿أسر﴾ سر ليلاً ﴿رهْواً﴾ ساكناً ، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر :

والخيلُ تمزع رهواً في أعنَّتها كالطير تنجو من الشُئبوب ذي البرد[١]

قال الجوهري : رها البحر أي سكن ، وجاءت الخيل رهواً أي برفق وسكينة ﴿منظرين﴾ مؤخرين ﴿نعمة﴾ النَّعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال .

سَبَبُ النّزول : عن ابن مسعود قال : إن قريشاً لما استعصت على النبيﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهْد ، فأنزل الله تعالى ﴿فارتقبْ يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين﴾ فأُتي رسولُ اللهﷺ فقيل يا رسول الله : استسق لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى فُسُقوا فنزلت ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾[٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمۤ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿حمۤ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم[٣] ﴿والكتاب المبين﴾ أي أُقسم بالقرآن البيِّن الواضح ، الفارق بين طريق الهدى والضلال ، البيِّن في إعجازه ، الواضح في أحكامه ، وجوابه ﴿إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركة﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلةٍ فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾ قال ابن جزي : وكيفيةُ إنزاله فيها أنه أُنزل الى السماء الدنيا جملةً واحدة ، ثم نزل به جبريل على النبيﷺ شيئاً بعد شيء[٤] ، وقيل : المعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، قال القرطبي : ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل اللهُ فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[٥] ﴿إنّا كنا مُنْذرين﴾ أي لننذر به الخلق ، لأن من شأننا وعادتنا ألاَّ نترك

---

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في القرطبي ١٦/ ١٣٧ ومعنى الشؤوب : السحاب العظيم القطر .

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٤ . (٥) تفسير القرطبي ١٦/ ١٢٦ .

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

الناس دون إنذار وتحذيرٍ من العقاب ، لتقوم الحجة عليهم ﴿فيها يُفرق كلُّ أمرٍ حكيم﴾ أي في ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا الى السنة القابلة ما كان من حياةٍ ، أو موت ، أو رزقٍ قال المفسرون : إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر ، وصالح وطالح ، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكحُ ويُولد له وقد وقع اسمه في الموتى[١] ﴿أمراً من عندنا﴾ أي جميع ما نقدِّره في تلك الليلة وما نوحي به إلى الملائكة من شئون العباد ، هو أمرٌ حاصل من جهتنا ، بعلمنا وتدبيرنا ﴿إنَّا كنا مرسلين﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رحمةً من ربك﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر : وضع الظاهر ﴿ربك﴾ موضعَ الضمير « رحمةً منا » إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين[٢] ﴿إنه هو السميعُ العليم﴾ أي السميع لأقوال العباد ، العليمُ بأفعالهم وأحوالهم ﴿ربِّ السمواتِ والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما ، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لا إله إلا هو يُحيي ويُميتُ﴾ أي لا ربَّ غيره ، ولا معبود سواه ، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال ، يُحيي الأموات ، ويميت الأحياء ﴿ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين قال الرازي : والمقصودُ من الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء ، كان المُنزل ـ الذي هو القرآن ـ في غاية الشرف والرفعة[٣] ﴿بل هم في شكٍ يلعبون﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان في قولهم : اللهُ خالقنا ، بل هم في شكٍ من أمر البعث ، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده : التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بل هم في شكٍ يلعبون﴾ تحقيراً لشأنهم ، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب ، لكونهم من أهل الشك والامتراء ، وكونُ أفعالهم الهزء واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة ، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل ، والضار والنافع[٤] ، ثم لما بيَّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسليةً له ، وإقناطاً من إيمانهم فقال ﴿فارتقبْ يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مبين﴾ أي فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماءُ بدخانٍ كثيف ، بيِّنٍ واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود : إن قريشاً لما عصت الرسول ﷺ دعا عليهم فقال : « اللهم اشدُد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣١٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٣٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤١ . (٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٣١١ .

يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يوسف » فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ، وكان الرجل يُحدِّث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض ، ثم قال ابن مسعود : خمسٌ قد مضين : « الدخانُ ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام »[١] وقال ابن عباس : لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة ، وهو يأتي قُبيل القيامة ، يصيبُ المؤمن منه مثلُ الزكام ، ويُنضجُ رءوس الكافرين والمنافقين ، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوي ، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأُذنيه ودبره[٢] ﴿يغشى الناس هذا عذابٌ أليمٌ﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان : هذا عذاب أليم ﴿ربَّنا اكشفْ عنا العذاب إنَّا مؤمنون﴾ أي ويقولون مستغيثين : ربَّنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا قال البيضاوي : وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم[٣] ﴿أنَّى لهم الذكرى﴾ ؟ استبعادٌ لإيمانهم أي من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب ؟ ﴿وقد جاءهم رسولٌ مبين﴾ أي والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيِّن الرسالة ، مؤيدٌ بالبينات الباهرة ، والمعجزات القاهرة ، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه ؟ ﴿ثم تولَّوْا عنه وقالوا معلَّم مجنون﴾ أي ثم أعرضوا عنه وبهتوه ، ونسبوه إلى الجنون ـ وحاشاه ـ فهل يُتوقع من قومٍ هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟ ! قال الإمام الفخر : إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان : منهم من كان يقول : إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس ، ومنهم من كان يقول : إنه مجنون والجنُّ تلقي عليه هذا الكلام حال تخبطه[٤] ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ أي سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان قال الرازي : والمقصودُ التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم ، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى ، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف[٥] قال ابن مسعود : لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه ﴿يومَ نبْطش البطْشة الكُبرى إنا منتقمون﴾ أي واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى انتقاماً منهم ، والبطشُ : الأخذُ بقوة وشدة قال ابن مسعود : « البطشة الكبرى » يوم « بدر » وقال ابن عباس : هي يوم القيامة قال ابن كثير : والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يومُ بدر يومَ بطشةٍ أيضاً[٦] وقال الرازي : القول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤ . (٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره أبو السعود وقال : هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، وذكر ابن كثير الرأيين ثم رجح رأي ابن عباس وقال : إن ما أوردوه فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن . اهـ ابن كثير ٣/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٣١٢ . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٤ . (٥) نفس المرجع السابق (٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ .

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، ولمّا وصف بكونها « كبرى » وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، وذلك إنما يكون في القيامة[1] ، ثم ذكّر كفار قريش بما حلّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿ولقد فتنّا قبلهم قومَ فرعون﴾ أي ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم أقباط مصر ﴿وجاءهم رسولٌ كريم﴾ أي وجاءهم رسولٌ شريف الحسب والنسب ، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿أنْ أدّوا إليَّ عبادَ الله﴾ أي فقال لهم موسى : ادفعوا إليَّ عبادَ الله وأطلقوهم من العذاب ، يريد بني إسرائيل[2] كقوله تعالى ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ ﴿إني لكم رسولٌ أمينٌ﴾ أي إني رسولٌ مؤتمنٌ على الوحي غير متهم ، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿وأن لا تعلوا على اللّه﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا تترفّعوا عن طاعته ﴿إني آتيكم بسلطانٍ مبين﴾ أي قد جئتكم بحجةٍ واضحة ، وبرهانٍ ساطع ، يعترف بهما كل عاقل ﴿وإني عُذْت بربّي وربكم أن ترجُمون﴾ أي التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي : كأنهم توعّدوه بالقتل فاستجار بالله[3] ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة ، فكفوا عن أذاي وخلّوا سبيلي قال ابن كثير : أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمةً إلى أن يقضي الله بيننا[4] ﴿فدعا ربَّه أنَّ هؤلاء قومٌ مجرمون﴾ أي فدعا عليهم لمّا كذبوه قائلاً : يا ربِّ إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿فأسْرِ بعبادي ليلاً إنكم متَّبعون﴾ في الكلام حذف تقديره فأوحينا اليه وقلنا له : أسرِ بعبادي أي اخرج ببني إسرائيل ليلاً فإن فرعون وقومه يتبعونكم ، ويكون ذلك سبباً لهلاكهم ﴿واترك البحر رهواً﴾ أي واترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿إنهم جندٌ مُغرقون﴾ أي إنَّ فرعون وقومه سيغرقون فيه قال في التسهيل : لمّا جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق ، فأمره الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه[5] ، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم ، مطمئناً إلى أنهم لن يدركوا بني إسرائيل ، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال ﴿كم تركوا من جناتٍ وعيون﴾ كم للتكثير أي لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿وزروع ومقامٍ كريم﴾ أي ومزارع عديدة

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤٤ . (٢) هذا قول مجاهد واختاره في التسهيل ، وروي عن ابن عباس أن معناه : أن أدّوا إليَّ الطاعة والإيمان يا عباد الله .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٣٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٥ .

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة : ﴿ومقام كريم﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها[١] ﴿ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر : بيَّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي : الجنات ، والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم ـ وهو المجالس والمنازل الحسنة ـ ونعمة العيش بفتح النون وهي حسنُه ونضارته[٢] ﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ أي كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقومٍ آخرين ، كانوا مستعبدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير : والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا ـ بعد غرق فرعون وقومه ـ على الممالك القبطية ، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ وقال تعالى في مكان آخر ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾[٣] ﴿فما بكتْ عليهم السماءُ والأرض﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد ، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي وما كانوا مؤخرين وممهلين إلى وقت آخر . بل عُجِّل عقابهم في الدنيا قال القرطبي : تقول العرب عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أي عمَّت مصيبتُه الأشياء حتى بكته الأرض والسماء ، والريح والبرق قال الشاعر :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع لموتِ طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد ، وقيل هو على حذف مضاف أي ما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض[٤] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . . إلى . . فارتقبْ إنهم مرتقبون﴾ من آية (٣٠) إلى آية (٥٩) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه ، أردفه بذكر إحسانه لبني إسرائيل ، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه ، ثم حذَّر كفار مكة من بطش الله وانتقامه ، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء في يوم الفصل والجزاء .

اللغة : ﴿عالياً﴾ متكبراً جباراً ﴿بلاء﴾ اختبار وامتحان ﴿منشرين﴾ مبعوثين بعد الموت ، وأنشر الله الموتى أحياهم ﴿قوم تُبَّع﴾ ملوك اليمن ، وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة قال الجوهري :

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٣ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٣٩ .

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

التبابعة ملوك اليمن ، واحدهم تُبَّع[1] ، وقال أهل اللغة : تُبَّع لقب للملك منهم كالقياصرة للروم ، والأكاسرة للفرس ، والخلفاء للمسلمين[2] ﴿يوم الفصل﴾ يوم القيامة ﴿مولى﴾ قريب وناصر ﴿المهل﴾ النحاس المذاب ﴿الأثيم﴾ الفاجر من أثِمَ الرجل يأثم إذا وقع في الإثم والفجور ﴿اعتلوه﴾ جرُّوه وسوقوه بعنفٍ وشدَّة ﴿سُندس﴾ رقيق الديباج ﴿استبرق﴾ غليظ الديباج ﴿عين﴾ واسعات الأعين جمع عيناء ﴿ارتقب﴾ انتظر .

التفسير : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المُهين﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد ، المفرط في الإذلال والإهانة ، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم ، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿من فرعونَ إنه كان عالياً من المسرفين﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبراً جباراً ، متجاوزاً الحد في الطغيان والإجرام قال الصاوي : هذا من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل ، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين ، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه[3] ﴿ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين﴾ أي اصطفيناهم وشرفناهم على علمٍ منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة : على أهل زمانهم ، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس﴾ ﴿وآتيناهم من الآياتِ ما فيه بلاءٌ مبين﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جليٌ لمن تدبَّر وتبصَّر قال الرازي : والآياتُ مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المنِّ والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة ، التي ما أظهر الله مثلها على أحدٍ سواهم[4] ﴿إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ أي إن كفار قريش ليقولون : لن نموت إلا موتةً واحدةً وهي موتتنا الأولى في الدنيا ، وفي قوله تعالى ﴿هؤلاء﴾ تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم قال المفسرون : لمَّا كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة ، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر ، رجع إلى الحديث عن كفار قريش ، والغرضُ من قولهم ﴿إن هي إلاّ موتتنا الأولى﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا : إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور ، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وما نحنُ بمنشرين﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز أي أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياةً بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر : إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن

(١) الصحاح للجوهري مادة تبع . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٤ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤٨/ ٦٠ . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٨ .

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ

قالوا : إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث يوم القيامة[1] وقال القرطبي : قائل هذا أبو جهل ، قال يا محمد : إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما : قُصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً ، لنسأله عما يكون بعد الموت[2] ﴿أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّع﴾ استفهام انكار مع التهديد أي أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن ؟ الذين كانوا أكثر أموالاً ، وأعظم نعيماً من كفار مكة ؟ ﴿والذين من قبلهم أهلكناهم﴾ أي والذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم ، وخربنا بلادهم ، وفرقناهم شذر مذر قال أبو السعود : والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد ، أولي بأسٍ شديد ، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء ، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة ، فإهلاك هؤلاء أولى[3] ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾ تعليل للإهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم ، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين . . ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحقِّ فقال ﴿وما خلقنا السَّموات والأرضَ وما بينهما لاعبين﴾ أي وما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعباً وعبثاً ﴿ما خلقناهما إلا بالحقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحقِّ المبين ، لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال المفسرون : إن الله تعالى خلق النوع الإنساني ، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم ، من السقف المرفوع ، والمهاد المفروش ، وما بينهما من عجائب المصنوعات ، وبدائع المخلوقات ، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ، فآمن البعض وكفر البعض ، فلا بدَّ إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن ، ويعاقب فيها المسيء ، لتجزى كل نفسٍ بما كسبت ، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً ، وتنزَّه الله عن ذلك ، ولهذا قال بعده ﴿إنَّ يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين﴾ أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين ، سُمي ﴿يوم الفصل﴾ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال تعالى ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ ﴿يومَ لا يُغني مولىً عن مولى شيئاً ولا هم يُنصرون﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ، لا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه ، ولا ينفع أحدٌ أحداً ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والدٌ عن ولده ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ ﴿إلاَّ من رحم اللهُ﴾ استثناء متصل أي لا يغني قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإنه يُؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض[4] وقيل : منقطع أي لكنْ من رحمه اللهُ

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٤ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٥ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٣٩ .

ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

فإنه يشفع وينفع قال ابن عباس : يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة[1] ﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾ أي هو المنتقم من أعدائه ، الرحيمُ بأوليائه . . ولما ذكر الأدلة على القيامة ، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب ، فذكر وعيد الكفار أولاً ثم وعد الأبرار ثانياً للجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إنَّ شجرةَ الزقوم طعامُ الأثيم﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة ـ شجرة الزقوم ـ التي تنبتُ في أصل الجحيم ، طعام كل فاجر ، ليس له طعام غيرها قال أبو حيان : الأثيمُ صفة مبالغة وهو الكثير الآثام ، وفُسِّر بالمشرك[2] ﴿كالمُهل يغلي في البطون﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حرُّه ، فهو يُجرجر في البطن ﴿كغلي الحميم﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة قال القرطبي : وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم ،وسمَّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار ، وشبَّه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهل وهو النحاس المذاب ، والمرادُ بالأثيم الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل ، وذلك أنه كان يقول : يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم ، وإنما هو الثَّريد بالزبد والتمر[3] ، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه : تزقموا ، سخريةً واستهزاءً بكلام الله ، قال تعالى ﴿خذوه فاعْتلُوه إلى سواءِ الجحيم﴾ أي يُقال للزبانية : خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حرُّه ﴿ذقْ إنكَ أنتَ العزيزُ الكريم﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة : ذقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم قال عكرمة : التقى النبيﷺ بأبي جهل فقال النبيﷺ : إنَّ الله أمرني أن أقول لك ﴿أولى لكَ فأولى﴾ فقال : بأي شيءٍ تهددني ! واللهِ ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، إني لمن أعزِّ هذا الوادي وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه ونزلت هذه الآية[4] ﴿إنَّ هذا ما كنتم بهِ تمْترون﴾ أي إنَّ هذا العذاب هو ما كنتم تشكُّون به في الدنيا ، فذوقوه اليوم ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصرون﴾ والجمعُ في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم . . ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿إن المتقين في مقامٍ أمين﴾ أي الذين اتقوا اللهَ في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره ، وهو الجنة ولهذا قال بعده ﴿في جناتٍ وعيون﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة ، وعيونٍ جارية ﴿يلْبسون من

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٥١ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٩ . (٤) القرطبي ١٦/ ١٥١ .

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُنْدسٍ واستبرق﴾ أي يلبسون ثياب الحرير ، الرقيق منه وهو السندس ، والسميك منه وهو الاستبرق ﴿متقابلين﴾ أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كذلك وزوجناهم بحورٍ عينٍ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام ، وزوجناهم أيضاً بالحور الحسان في الجنان قال البيضاوي : أي قرناهم بالحور العين ، والحوراءُ: البيضاءُ ، والعيناءُ: عظيمة العينين[1] ، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر ، وانفراجه عن الغم ، ثم ذكر الحور الحِسان لأن بها اكتمال سعادة الإنسان كما قيل « ثلاثةٌ تنفي عن القلب الحزن : الماء ، والخضرةُ ، والوجهُ الحسن » ثم زاد في بيان النعيم فقال ﴿يدْعون فيها بكلِّ فاكهةٍ آمنين﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة ، لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض ، فلا تعب في الجنة ولا وَصَب ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلاَّ الموتة الأولى﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت ، بل خلود أبد الآبدين ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ أي خلَّصهم ونجَّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فضلاً من ربك﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي ذلك الذي أعطوه من النعيم ، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ أي فإنما سهلنا القرآن بلغتك ـ وهي لسان العرب ـ لعلهم يتعظون وينزجرون ﴿فارتقب إنهم مرتقبون﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ، إنهم منتظرون هلاكك ، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة ، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ ﴿العزيز الرحيم﴾ ﴿العزيز الكريم﴾ .

٢ ـ الطباق ﴿لا إله إلا هو يُحيي ويميت﴾ وكذلك ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾ .

٣ ـ تحريك الهمة للإيمان والتبصر ﴿إن كنتم موقنين﴾ .

٤ ـ الإيجاز بحذف بعض الكلام ﴿أنْ أسر بعبادي﴾ أي وقلنا له بأن أسر .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم ، والعرب يقولون في التعظيم : بكت عليه السماء والأرض ،

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٨٢ .

وأظلمت له الدنيا ويقولون في التحقير : مات فلان فلم تخشع له الجبال .

٦ ـ أسلوب التعجيز ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ .

٧ ـ أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذقْ إنـك أنت العزيز الكريم﴾ .

٨ ـ التفجع وإظهار الأسى والحسرة ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ ؟

٩ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم﴾ .

١٠ ـ السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله إقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿إن شجرةَ الزقوم طعامُ الأثيم . كالمهل يَغْلي في البطونِ كغلي الحميم . خذوه فاعْتِلُوه إلى سواء الجحيم . ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان »

* * *

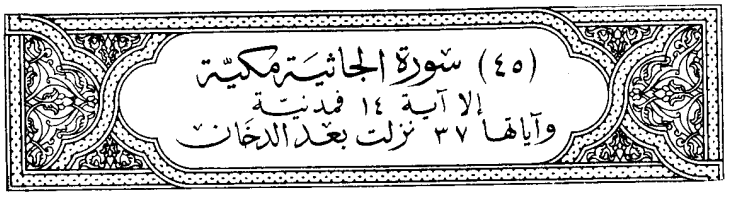

بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية ، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع « الإيمان بالله تعالى ووحدانيته ، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام ، الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء » ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

* تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره ، وهو اللهُ العزيز في ملكه ، الحكيم في خلقه ، الذي أنزل كتابه المجيد رحمةً بعباده ، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير .

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح ، ففي السموات البديعة آياتٌ ، وفي الأرض الفسيحة آياتٌ ، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آياتٌ ، وفي تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الرياح والأمطار آياتٌ ، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وقدرته ووحدانيته ، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن ، الذين يسمعون آياته المنيرة ، فلا يزدادون إلا استكباراً وطغياناً ، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم .

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه ، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم ، ويعلموا أنَّ الله وحده هو مصدر هذه النعم ، الظاهرة والباطنة ، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله .

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم ، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان ، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام ، وبيَّنت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين ، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار ، ثم بيَّنت سبب ضلال المشركين ، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبداً .

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تنقسم الإنسانية الى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

التسمية: سميت « سورة الجاثية » للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب ، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب فى انتظار الحساب ، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وترى كل أُمةٍ جاثيةً ، كلُّ أُمةٍ تُدعى إلى كتابها اليومَ تُجزون ما كنتم تعملون﴾ وحقاً إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . . إلى . . وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

اللغة : ﴿يبثُّ﴾ ينشر ويفرِّق ﴿تصريف﴾ تقليب ، صرَّف الله الريح قلَّبها من جهة إلى جهة ﴿ويلٌ﴾ كلمة تستعمل في العذاب والدمار ﴿أفَّاك﴾ كذَّاب ، والإفك : الكذبُ ﴿أثيم﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رجز﴾ أشد العذاب ﴿يُصرُّ﴾ أصرَّ على الشيء : عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يغني﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿ما أغنى عني ماليَهْ﴾ ﴿بصائر﴾ دلائل ومعالم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

التفسير : ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ، العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمةٌ ومصلحة للعباد ، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة فقال ﴿إنَّ في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين﴾ أي إنَّ في خلق السمواتِ والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة ، والأحوال الغريبة ، والأمور البديعة ، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته ، لقوم يصدّقون بوجود الله ووحدانيته ﴿وفي خلقِكم وما يبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنون﴾ أي وفي خلقكم أيها الناسُ من نطفةٍ ثم من علقة ، متقلبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق ، وفيما ينشره تعالى ويُفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض ، آياتٌ باهرةٌ أيضاً لقومٍ يصدّقون عن إذعانٍ ويقين بقدرة ربِّ العالمين ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار ، دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وذاك بضيائه ، بنظام محكم دقيق ﴿وما أنزلَ اللهُ من السَّماء من رزقٍ﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب ، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير : وسمَّى

(١) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير .

رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ
عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ

تعالى المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق[1] ﴿فأحيا به الأرضَ بعدَ موتها﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعدما كانت هامدةً يابسة لا نبات فيها ولا زرع ، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات ﴿وتصريفِ الرياحِ﴾ أي وفي تقليب الرياح جنوباً وشمالاً ، باردة وحارة ﴿آياتٌ لقوم يعقلون﴾ أي علامات ساطعة واضحة على وجود الله ووحدانيته ، لقومٍ لهم عقول نيّرة وبصائر مشرقة قال الصاوي: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستةً في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿للمؤمنين﴾،والثانية بـ﴿ يوقنون﴾ والثالثة بـ ﴿يعقلون﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السمواتِ والأرض ، وأنه لا بدَّ لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن ، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه[2] ﴿تلك آياتُ اللَّهِ نتلوها عليك بالحقِّ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبراهينه ، الدالة على وحدانيته وقدرته ، نقصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فبأيِ حديثٍ بعدَ اللَّهِ وآياتِهِ يؤمنون﴾ ؟ أي وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله ، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه ، فبأي كلامٍ يؤمنون ويصدِّقون ؟ والغرضُ استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه ﴿ويلٌ لكلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ﴾ أي هلاك ودمارٌ لكل كذَّابٍ مبالغٍ في اقتراف الآثام قال الرازي : وهذا وعيدٌ عظيم ، والأفَّاك الكذَّاب ، والأثيمُ المبالغ في اقتراف الآثام[3] ﴿يسْمعُ آياتِ اللَّهِ تُتلى عليه﴾ أي يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه ، وهي في غاية الوضوح والبيان ﴿ثم يُصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ أي ثم يدوم على حاله من الكفر ، ويتمادى في غيّه وضلاله ، مستكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسمعها ﴿فبشِّرهُ بعذابٍ أليمٍ﴾ أي فبشرّه يا محمد بعذاب شديد مؤلم ، وسمَّاه « بشارة » تهكماً بهم ، لأن البشارة هي الخبر السارُّ قال في التسهيل : وإنما عطفه بـ « ثم » لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله ، واستبعاد ذلك في العقل والطبع[4] قال المفسرون : نزلت في « النضر بن الحارث » كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآيةُ عامةٌ في كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ﴿وإذا علِمَ مِنْ آياتنا شيْئاً اتَّخذها هُزواً﴾ أي إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد ، سخر واستهزأ بها ﴿أولئك لهم عذابٌ مهينٌ﴾ أي أولئك الأفاكون المستهزءون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة ﴿من ورائهم جهنم﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٨ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٨ .

ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق ﴿ولا يُغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿ولا ما اتَّخذوا مِنْ دونِ اللهأولياءَ﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿ولهم عذابٌ عظيم﴾ أي ولهم عذاب دائم مؤلم قال أبو السعود : وتوسيط النفي ﴿ولا ما اتخذوا﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد ، مبنيٌ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ، وفيه تهكم بهم[1] ﴿هذا هُدىً﴾ أي هذا القرآن كامل في الهداية لمن آمن به واتَّبعه ﴿والذين كفروا بآياتِ ربهم﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سطوعه ، وفيه زيادة تشنيع على كفرهم به ، وتفظيع حالهم ﴿لهُم عذابٌ مِن رِجزٍ أليم﴾ أي لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب مؤلمٌ موجعٌ قال الزمخشري : والرجزُ أشدُّ العذاب ، والمراد بـ﴿آياتِ ربهم﴾ القرآن[2] . . ثم لمَّا توعَّدهم بأنواع العذاب ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة ليشكروه ويوحّدوه فقال ﴿اللهُ الذي سخَّر لكم البحر﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته وعِظمه ﴿لتجري الفُلك فيه بأمره﴾ أي لتسير السفنُ على سطحه بمشيئته وإرادته ، دون أن تغوص في أعماقه قال الإمام الفخر : خلَق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها السفن ، وخلق الخشبة على وجهٍ تبقى طافيةً على وجه الماء دون أن تغوص فيه ، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله[3] ﴿ولِتبْتغُوا من فضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة ، والغوص على اللؤلؤ والمرجان ، وصيد الأسماك وغيرها ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضَّل قال القرطبي : ذكر تعالى كمال قدرته ، وتمام نعمته على عباده ، وبيَّن أنه خلقَ ما خلق لمنافعهم ، وكلُّ ذلك من فعله وخلقه ، وإحسانٌ منه وإنعام[4] ﴿وسخَّر لكُمْ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال ، وبحار ، وأنهار ، ونباتٍ ، وأشجار ، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ، من عنده وحده جلَّ وعلا ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكَّرون﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعِبراً وعظات لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون ، ثم لما بيَّن تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق ، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قلْ للذين آمنوا يغْفروا للَّذين لا يرْجونَ أيَّام اللَّه﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار ، ويتجاوزوا عمَّا يصدر عنهم من الأذى والأفعال

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨ . (٢) الكشاف ٤/ ٢٢٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٢ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٠ .

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

الموحشة **قال مقاتل** : شتم رجلٌ من الكفار عمر بمكة فهمَّ أن يبطش به ، فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية[١] ، والمرادُ من قوله ﴿لا يرجون أيامَ اللَّه﴾ أي لا يخافون بأسِ الله وعقابه لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله **قال ابن كثير** : أُمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ، ليكون ذلك تأليفاً لهم ، ثم لما أصرُّوا على العناد ، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[٢] ﴿**ليجزيَ قوماً بما كانوا يكسبون**﴾ وعيدٌ وتهديد أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام ، والتنكيرُ للتحقير ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومنْ أساءَ فعليها**﴾ أي من فعل خيراً في الدنيا فنفعُه لنفسه ، ومن ارتكب سوءاً وشراً فضرره عائد عليها ، ولا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿**ثُمَّ إلى ربكم تُرجعون**﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده ، فيجازي كلاً بعمله ، المحسنَ بإحسانه ، والمسيءَ بإساءته . . ولما ذكَّر بالنعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتابَ والحُكمَ والنُبوَّة**﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة ، وفصل الحكومات بين الناس ، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿**ورزقناهم من الطيبات**﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المآكل والمشارب ، والأقوات والثمار ﴿**وفضَّلناهم على العالمين**﴾ أي وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم **قال الصاوي** : والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال : لا تحزن يا محمد على كفر قومك ، فإننا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة ، فلم يشكروا بل أصرُّوا على الكفر ، فكذلك قومك[٣] ﴿**وآتيناهم بيِّناتٍ من الأمر**﴾ أي وبينا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه **قال ابن عباس** : يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يُهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها[٤] ﴿**فما اختلفُوا إلاَّ منْ بعدِ ما جاءهُم العلمُ**﴾ أي فما اختلفوا في ذلك الأمر ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿**بغْياً بينهم**﴾ أي حسداً وعناداً وطلباً للرياسة **قال الإمام الفخر** : والمقصودُ من الآية التعجبُ من هذه الحالة ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وههنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف ، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، فلذلك علموا وعاندوا[٥] ﴿**إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي هو جل وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، وفي الآية زجرٌ للمشركين

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٦٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٩ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٥ .
(٤) حاشية الجمل ٤/ ١١٦ . (٥) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٥ .

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتَّبِعها﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقةٍ واضحة ، ومنهاجٍ سديد رشيد من أمر الدين ، فاتبع ما أوحى إليك ربك من الدين القيّم ﴿ولا تتَّبعْ أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي لا تتَّبع ضلالات المشركين قال البيضاوي : لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش حيث قالوا : ارجع إلى دين آبائك[1] ﴿إنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم ﴿وإنَّ الظالمين بعضهم أولياءُ بعضٍ﴾ أي وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا ولا ولي لهم في الآخرة ﴿واللهُ وليُّ المتقين﴾ أي وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ﴿هذا بصائر للناسِ وهدىً ورحمة لقومٍ يوقنون﴾ أي هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر في القلوب ، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن .

* * *

قال الله تعالى : ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا . . إلى . . وهو العزيز الحكيم﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٧)

المناسبة : لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل ، وبيَّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسَّك به ، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر ، ولا البر مع الفاجر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور .

اللغة : ﴿اجترحوا﴾ اكتسبوا والاجتراحُ الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غشاوة﴾ غطاء وغشَّى الشيءَ غطَّاه ﴿جاثية﴾ باركةً على الركب لشدة الهول جثا ـ يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نستنسخ﴾ استنسخ الشيء أمر بكتابته وتدوينه ﴿حاق﴾ نزل وأحاط ﴿يُستعتبون﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال : استعتبتُه فأعتبني أي استرضيتُه فقبل مني عذري ﴿الكبرياء﴾ العظمة والمُلك والجلال .

سبب النزول : روي أن أبا جهلٍ طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل : واللهِ إني لأعلم أنه لصادق ، فقال له : مهْ ، وما دلَّك على ذلك ؟ فقال يا أبا عبد شمسٍ : كنا نسميه في صباه الصادق الأمين ، فلما تمَّ عقلهُ وكمُل رشده نسميه الكذاب الخائن ! ! والله إني لأعلم أنه لصادق ، قال : فما يمنعك أن تصدِّقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عني بنات قريش

(١) البيضاوي على زادة ٣/ ٣٢٣ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسْرة، واللاتِ والعُزَّى لا أتَّبعه أبداً فنزلت ﴿أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه . .﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿أَمْ حسِبَ الذينَ اجْترحوا السَّيئاتِ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى هل يظنُّ الكفار الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أن نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿سواءً محياهم ومماتهم﴾ أي نساوي بينهم في المحيا والممات ؟ لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكفار ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة ، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية ، وشتان بين الفريقين كقوله ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ ؟ قال مجاهد : المؤمنُ يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً[2] ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين قال ابن كثير : ساء ما ظنّوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار ، فكما لا يُجتنى من الشوكِ العنبُ ، كذلك لا ينال الفُجَّار منازل الأبرار[3] ﴿وخلق اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ﴾ أي وخلق الله السمواتِ والأرض بالعدل والأمر الحقِّ ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي ولكي يُجزى كل إنسان بعمله ، وبما اكتسب من خير أو شر ، دون أن يُنقص في ثواب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر قال شيخ زاده : لمّا خلق تعالى السمواتِ الأرض لإجل إظهار الحق ، وكان خلقهما من جملة حكمته وعدله ، لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم ، فبثت بذلك حشر الخلائق للحساب[4] ﴿أفرأيتَ منْ اتَّخذ إلهه هواهُ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه ! ! قال في البحر : أي هو مطواعٌ لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلَهه[5] قال ابن عباس : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلاّ ركبه ﴿وأضلَّه اللَّهُ على علمٍ﴾ أي وأضلَّ الله ذلك الشقي في حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به ، فهو أشدُّ قبحاً وشناعةً ممن يضل عن جهل ، لأنه يُعرض عن الحقِّ والهُدى عناداً كقوله تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعُلواً﴾ ﴿وختم على سمْعهِ وقلبِه﴾ أي وطبع على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ ، ولا يتفكر في الآيات والنُّذر ﴿وجعل على بصره غشاوةً﴾ أي وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد ، ولا يرى حجة يستضيء بها ﴿فمن يهْديهِ منْ

(١) رواه مقاتل كذا في القرطبي ١٦/ ١٧٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ .
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٢٥ . (٥) البحر المحيط ٨/ ٤٨ .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

بعدِ اللَّه﴾ ؟ أي فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله ؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أفلا تذكَّرون﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعظون ؟ **قال الصاوي** : وصف تعالى الكفار بأربعة أوصاف : **الأول**:عبادة الهوى ،**الثاني**: ضلالهم على علم**الثالث**:الطبع على أسماعهم وقلوبهم**الرابع** :جعل الغشاوة على أبصارهم ، وكلٌّ وصفٍ منها مقتضٍ للضلالة ، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجهٍ من الوجوه . .[1] ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة ، وفي إنكار الإله القادر العليم فقال ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدُنيا نموتُ ونحيا﴾ أي وقال المشركون : لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، ولا آخرة ، ولا بعث ، ولا نشور **قال ابن كثير** : هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ، ومرادهم ما ثمَّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وليس هناك معادٌ ولا قيامة ، وهذا قول الفلاسفة الدهريين ، المنكرين للصانع ، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه[2] ﴿**وما يُهْلكنا إلا الدَّهر**﴾ أي وما يهلكنا إلا مرورُ الزمان ، وتعاقبُ الأيام **قال الرازي** : يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ الأفلاك ، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار ، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة[3] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿**وما لهم بذلك من علمٍ**﴾ أي وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل ، ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجةٍ ولا بينة ﴿**إنْ هُم إلاَّ يظنون**﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلون ، يتكلمون بالظن من غير يقين ﴿**وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّناتٍ**﴾ أي وإذا قرئت آياتُ القرآن على المشركين ، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿**ما كان حُجَّتهم إلاَّ أنْ قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ أي ما كان متمسكهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا : أحْيوا لنا آباءنا الأولين ، إن كان ما تقولونه حقاً ، سُمِّيَ قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿**قلِ اللَّهُ يُحْييكم ثم يُميتكم**﴾ أي قل لهم يا محمد : اللهُ الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطفاً هو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم ، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿**ثم يجْمعُكم إلى يومِ القيامةِ لا ريْب فيه**﴾ أي ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا ، فإنَّ من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحكمةُ اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة ، الذي لا شك فيه ولا ارتياب ﴿**ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلَمون**﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر ، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٧٥ .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ

والجزاء . . ثم بيَّن إمكان الحشر والنشر ذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وللَّهِ ملكُ السمواتِ والأرض﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿ويوم تقومُ الساعةُ يومئذٍ يخسر المبطلون﴾ أي ويوم القيامة يخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وترى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً﴾ أي وترى أيها المخاطب كل أمةٍ من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفزع ، كما يجثوا الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف الذليل قال ابن كثير : وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه[1] ﴿كلُّ أُمةٍ تُدعى إلى كتابها﴾ أي كلُّ أمةٍ من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿اليومَ تُجْزون ما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم : في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خيرٍ أو شر ﴿هذا كتابنا ينْطِق عليكم بالحق﴾ أي هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل : فإن قيل : كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى ؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه ، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه[2] ﴿إنَّا كُنَّا نستنْسخُ ما كنتم تَعْملون﴾ أي كنَّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم ، وإثباتها عليكم قال المفسرون : تنسخ هنا بمعنى تكتب ، وحقيقة النسخ هو النقل من أصلٍ إلى آخر ، وقال ابن عباس : تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة ، مما قد أُبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القِدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس يقول : ألستم عرباً ، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل[3] ؟ ثم بيَّن تعالى أحوال كلٍ من المطيعين والعاصين فقال ﴿فأمَّا الذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحات فيُدخلهم ربُّهُم في رحْمَته﴾ أي فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا ، فيدخلهم الله في الجنة ، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزل رحمةِ الله ﴿ذلك هو الفوزُ المبينُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم ، البيِّن الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وأمَّا الذين كفروا أفلمْ تكن آياتي تُتلى عليكم﴾ أي وأمَّا الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً : أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله ؟ ﴿فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾ أي فتكبرتم عن الإيمان بها ، وأعرضتم عن سماعها ، وكنتم قوماً مغرقين في الإجرام ﴿وإذا قيل إنَّ وعد الله حقٌّ﴾ أي وإذا قيل لكم إن البعث كائن لا محالة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٢ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٠ . (٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٥١ ومختصر ابن كثير ٣/ ٢١٣ .

حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿والساعةُ لا ريبَ فيها﴾ أي والقيامة آتيةٌ لا شك في ذلك ولا ريب ﴿قُلتم ما ندْري ما السَّاعةُ﴾ أي قلتم لغاية عتوكم : أيُّ شيء هي ؟ أحقٌّ أم باطل ؟ قال البيضاوي : قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها[1] ﴿إن نظنُّ إلاَّ ظناً﴾ أي لا نصدِّق بها ولكن نسمع الناس يقولون : إنَّ هناك آخرة فنتوهم بها توهماً ﴿وما نحنُ بمُستيْقنين﴾ أي ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقيناً ، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وبدا لهم سيئات ما عمِلوا﴾ أي وظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يسْتهزئُون﴾ أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا ﴿وقيلَ اليومَ ننْساكم كما نسيتم لقاءَ يومِكم هذا﴾ أي ويقال لهم : اليوم نترُككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي ، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم ﴿ومأواكم النارُ﴾ أي ومستقركم في نار جهنم ﴿وما لكم من ناصرين﴾ أي وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء ، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به ﴿وغرتكم الحياةُ الدنيا﴾ أي خدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها ، حتى ظننتم ألاَّ حياة سواها ، وألاَّ بعث ولا نشور ﴿فاليومَ لا يُخْرجون منهاولا هم يُسْتعتبون﴾ أي فاليوم لايُخْرجون من النار ، ولا يُطلبُ منهم أن يرضوا ربَّهُم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذٍ ﴿فللَّهِ الحمدُ ربِّ السمواتِ وربِّ الأرض ربِّ العالمين﴾ أي فلله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ سواه لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وله الكبرياءُ في السموات والأرض﴾ أي وله العظمة والجلال ، والبقاء والكمال في السموات والأرض ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي الغالب الذي لا يغلب ، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بأنَّ واللام ﴿إن في السموات والأرض لآيات﴾ لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤/١٢٢ .

٢ ـ صيغة المبالغة ﴿ويلٌ لكل أفَّاك أثيم﴾ لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة .

٣ ـ الأسلوب التهكمي ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة تكون بالخير واستعمالها بالشر تهكمٌ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق﴾ أي مطر ، مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الرزق لا ينزل من السماء ، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق .

٥ ـ التشبيه المرسل ﴿يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ أي كأنه لم يسمع آيات القرآن .

٦ ـ المبالغة بذكر المصدر ﴿هذا هُدى﴾ كأن القرآن لوضوح حجته عين الهُدى .

٧ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سخَّر لكم البحر . . وسخَّر لكم ما في السمواتِ وما في الأرض﴾ لإظهار الامتنان .

٨ ـ طباق السلب ﴿فاتَّبعها ولا تتَّبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ .

٩ ـ المجاز المرسل ﴿فيدخلهم في رحمته﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله .

١٠ ـ الطباق بين ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها﴾ وبين ﴿نموت ونحيا﴾ وبين ﴿يحييكم ثم يميتكم﴾ .

١١ ـ الاستعارة التصريحية ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي يشهد عليكم ، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة ، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه .

١٢ ـ الالتفات ﴿فاليوم لايُخْرجون منها﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب .

١٣ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ مثَّل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكانٍ ثم نسيه السَّجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية ، والمراد من الآية نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي ، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية »

* * *

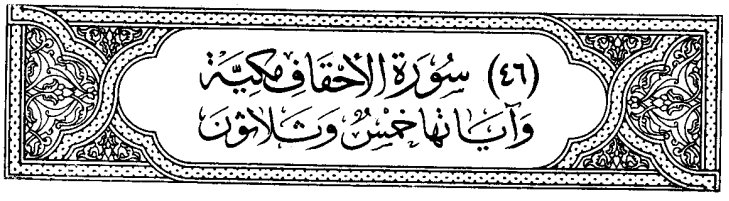

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، العقيدة في أصولها الكبرى « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحور السورة الكريمة يدور حول « الرسالة والرسول » لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن .

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق ، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده ، فبيَّنت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، ثم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن ، فردَّت على ذلك بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع .

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها ، فذكرت نموذج الولد الصالح ، المستقيم في فطرته ، البارّ بوالديه ، الذي كلما زادت سنه وتقدم في العمر ازداد تُقىً وصلاحاً وإحساناً لوالديه . . ونموذج الولد الشقي ، المنحرف عن الفطرة ، العاقّ لوالديه ، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما .

* ثم تحدثت السورة عن قصة « هود » عليه السلام مع قومه الطاغين « عاد » الذين طغوا في البلاد واغتروا بما كانوا عليه من القوة والجبروت ، وما كان من نتيجتهم حيث أهلكهم الله بالريح العقيم ، تحذيراً لكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ .

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجنِّ الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان ، تذكيراً للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام .

التسمية : سميت « سورة الأحقاف » لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف . .﴾ الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

اللغة : ﴿شِرْكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أثارة﴾ بقية من الشيء ﴿تُفيضون﴾ الإفاضة في الشيء : الخوضُ فيه والاندفاع يقال : أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه ، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بِدعاً﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي : والبِدعُ والبديع من كل شيء المبدع ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السُنَّة[1] ﴿إفك﴾ كذب ﴿كُرهاً﴾ بكرهٍ ومشقة ﴿فصاله﴾ فطامه ﴿أوزعني﴾ ألهمني ﴿أفٍ﴾ كلمة تضجّر وتبرم ﴿خلت﴾ مضت .

التفسير : ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[2] ﴿تنزيلُ الكتابِ من اللَّهِ العزيزِ الحكيمِ﴾ أي هذا الكتاب المجيد منزَّل من عند الإله العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ما خلقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنهُما إلا بالحقِّ﴾ أي ما خلقنا السمواتِ والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً ، وإنما خلقناهما خلقاً متلبساً بالحكمة ، لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وأجلٍ مُسمًّى﴾ أي وإلى زمنٍ معيَّن هو زمن فنائهما يوم القيامة ﴿يوم تبدَّل الأرضُ غير الأرضِ والسمواتُ وبرزوا للهِ الواحد القهار﴾ ﴿والذين كفروا عمَّا أُنْذِروا مُعْرِضون﴾ أي وهؤلاء الكفار معرضون عما خُوّفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة ،لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له . . ثم لما بيَّن وجود الإله العزيز الحكيم ردَّ على عبدة الأصنام فقال ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ، وتزعمون أنها آلهة ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ؟ أي أرشدوني وأخبروني أيَّ شيءٍ خلقوا من أجزاء الأرض ، وممَّا على سطحها من إنسانٍ أو حيوان ؟ ﴿أمْ لهم شركٌ في السَّمواتِ﴾ ؟ أي أمْ لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السمواتِ ؟ ﴿ائتوني بكتابٍ من قبل هذا﴾ أي هاتوا كتاباً من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام ؟ وهو أمر تعجيز لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشراك بالله ، بل الكتب كلُّها ناطقة بالتوحيد ﴿أوْ أثارة منْ علمٍ﴾ أي أو بقية من علمٍ من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله قال في البحر : طلب منهم أن يأتوا بكتابٍ واحدٍ يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله ، أو بقيةٍ من علوم الأولين ، والغرضُ

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٧ . (٢) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

توبيخهم لأن كل كتب الله المنزّلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك ، فليس لهم مستند من نقل أو عقل[1] . . ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿ومنْ أضلُّ ممَّن يدعُوا منْ دُون اللهِ من لا يستْجيبُ لهُ إلى يوم القيامة﴾ ؟ أي لا أحد أضلُّ وأجهل ممن يعبد أصناماً لا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعلم حاجاتِ المحتاجين ، ولا تستجيب لمن ناداها أبداً لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل ﴿وهم عنْ دعائهم غافلون﴾ أي وهم لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين ، وفيه تهكم بها وبعبدتها ، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء ، لأنهم لما عبدوها ونزّلوها منزلة من يضر وينفع ، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع ، مجاراة لزعم الكفار ﴿وإذا حُشر الناسُ كانوا لهم أعداءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون : إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول ﴿تبرأنا إليكَ ما كانوا إيَّانا يعبدون﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كلاَّ سيكفُرون بعبادتهم ويكونُونَ عليهم ضِدّاً﴾ واللهُ على كل شيء قدير[2] ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بيِّناتٍ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قال الذين كفروا للحقِّ لما جاءهم﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هذا سحرٌ مبين﴾ أي هذا سحرٌ لا شبهة فيه ظاهر كونه سحراً ، وإنما وضع الظاهر ﴿الذين كفروا﴾ موضع الضمير تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة قال في البحر : وفي قوله ﴿لَّما جاءهم﴾ تنبيهٌ على أنهم لم يتأملوا ما يُتلى عليهم ، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عناداً وظلماً ، ووصفوه بأنه ﴿مبينٌ﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه[3] ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قلْ إن افتريتُه فلا تملكونَ لي من الله شيئاً﴾ أي قل إن افتريتُه ـ على سبيل الفرض ـ فالله حسبي في ذلك وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا تقدرون أنتم على أن تردُّوا عني عذاب الله ، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه ؟ ﴿هو أعلمُ بما تُفيضون فيه﴾ أي هو جل وعلا أعلمُ بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم هو شعر ، هو سحر ، هو افتراء ، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهداً بيني وبينكم ، يشهد لي بالصدق والتبليغ ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي وهو الغفور لمن تاب ، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان : وفيه

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٥ . (٢) انظر التفسير الكبير ٢٨/ ٦ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٥٦ .

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

وعدٌ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر ، وإشعارٌ بحلمه تعالى عليهم إذْ لم يعاجلهم بالعقوبة[1] ﴿قلْ ما كنتُ بدعاً من الرُسل﴾ أي لست أول رسول طرق العالم ، ولا جئت بأمرٍ لم يجيء به أحدٌ قبلي ، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلي ، فلأيّ شيءٍ تنكرون ذلك عليَّ ؟ والبدْعُ والبديعُ من الأشياء هو الذي لم يُر مثله **قال ابن كثير** : أي ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم ، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ﴿وما أدْري ما يُفعل بي ولا بكم﴾ أي ولا أدري بما يقضي اللهُ عليَّ وعليكم ، فإن قدر الله مغيَّب ﴿إن أتّبع إلا ما يُوحى إليَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما ينزله اللهُ عليَّ من الوحي ، ولا أبتدع شيئاً من عندي ﴿وما أنا إلا نذيرٌ مبين﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ لكم من عذاب الله ، بيّن الإنذار بالشواهد الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به﴾ أي قل يا محمد : أخبروني يا معشر المشركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقاً وقد كذبتم به وجحدتموه وجوابه محذوف تقديره : كيف يكون حالكم ؟ ﴿وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله فآمنَ واستكبرتم﴾ أي وقد شهد رجل من علماء بني إسرائيل على صدق القرآن ، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان ، كيف يكون حالكم ، ألستم أضل الناس وأظلم الناس ؟ **قال الزمخشري** : وجوابُ الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ؟ ودلَّ على هذا المحذوف قوله تعالى ﴿إنَّ اللهَ لا يَهْدي القوم الظالمين﴾[3] أي لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجراً ظالماً **قال المفسرون** : والشاهدُ من بني إسرائيل هو « عبد الله بن سلام » وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سلام ليمتحنه ، فلما نظر إلى وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر ، فقال له : إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أُمه ؟ فلما أجابه ﷺ قال : أشهد أنك رسول الله حقاً[4] . . الخ ثم ردَّ تعالى على شبهةٍ أُخرى من شبه المشركين فقال ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي وقال كفار مكة في حق المؤمنين : لو كان هذا القرآن والدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء ! ! **وقال ابن كثير** : يعنون « بلالاً » و « عماراً » و « صهيباً » و « خباباً » وأشباههم من المستضعَفين والعبيد والإماء ممن أسلم وآمن بالنبي[5] ﷺ ﴿وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٦ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٦ .
(٣) تفسير الكشاف ٤/ ٢٣٦ . (٤) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٨ .

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

أي ولّما لم يهتدوا بالقرآن مع وضوح إعجازه ، قالوا هذا كذبٌ قديم مأثور عن الأقدمين ، أتى به محمد ونسبه إلى الله تعالى ﴿ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمةً﴾ أي ومن قبل القرآن التوراة التي أنزلها الله على موسى قدوةً يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام ، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها قال الإمام الفخر : ووجه تعلق الآية بما قبلها أن المشركين طعنوا في صحة القرآن ، وقالوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الصعاليك ، فردَّ الله عليهم بأنكم لا تنازعون أن الله أنزل التوراة على موسى ، وجعل هذا الكتاب ـ التوراة ـ إماماً يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلمتم كونها من عند الله ، فاقبلوا حكمها بأن محمداً ﷺ رسولٌ حقاً من عند الله[1] ﴿وهذا كتابٌ مصدِّقٌ لساناً عربياً﴾ أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن ، مصدِّقٌ للكتب قبله بلسانٍ عربي فصيح ، فكيف ينكرونه وهو أفصح بياناً ، وأظهر برهاناً ، وأبلغ إعجازاً من التوراة ؟ ﴿لِيُنذِرَ الذين ظلموا وبُشرى للمُحسنين﴾ أي ليخوِّف كفار مكة الظالمين من عذاب الجحيم ، ويبشر المؤمنين المحسنين بجنات النعيم . . ولما بيَّن تعالى أحوال المشركين المكذبين بالقرآن ، أردفه بذكر أحوال المؤمنين المستقيمين على شريعة الله فقال ﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا﴾ أي جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾ أي فلا يلحقهم مكروهٌ في الآخرة يخافون منه ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا في الدنيا ﴿أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها﴾ أي أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم ، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾ أي نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة ﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه إحْساناً﴾ لمَّا كان رضا الله في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما حثَّ تعالى العباد عليه والمعنى أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين ، ثم بيَّن السبب فقال ﴿حملتْهُ أُمُّهُ كُرهاً ووضعته كُرهاً﴾ أي حملته بكرهٍ ومشقة ووضعته بكرهٍ ومشقة ﴿وحمله وفِصالُه ثلاثون شهراً﴾ أي ومدة حمله ورضاعه عامان ونصف ، فهي لا تزال تعاني التعب والمشقة طيلة هذه المدة قال ابن كثير : أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحَم ، وغثيان ، وثقل ، وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ووضعته بمشقة أيضاً من الطَّلق وشدته ، وقد استدل العلماء بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وفصاله في عامين﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قويٌ صحيح[2] ﴿حتَّى إذا بلغَ أشده﴾ أي حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كمال قوته وعقله ﴿وبلغ أربعين

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ١٢ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٩ .

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

سنة﴾ أي واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد[1] ﴿قال ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ﴾ أي قال ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ حتى ربياني صغيراً ﴿وأنْ أعملَ صالحاً ترضاه﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملاً صالحاً يرضيك عني ﴿وأصلحْ لي في ذريتي﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين قال شيخ زاده : طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء : **الأول** : ان يوفقه الله للشكر على النعمة **والثاني**: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله **والثالث**: أن يصلح له في ذريته ، وهذه كمال السعادة البشرية[2] ﴿إني تُبتُ إليكَ وإني من المسلمين﴾ أي إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب ، وإني من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير : وفي الآية إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها[3] ﴿أولئك الذين نتقبلُ عنهم أحسنَ ما عملوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم ، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وعدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعدون﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل ، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم . . ولما مثَّل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة ، مثَّل لحال الإنسان العاقِّ لوالديه وما يئول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما﴾ أي وأمَّا الولد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍ لكما أي قبحاً لكما على هذه الدعوة ﴿أتعِدانني أن أُخرج وقد خلتِ القرونُ من قبلي﴾ ؟ أي أتعدانني أن أُبعث بعد الموت وقد مضت قرونٌ من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد ؟ ﴿وهما يستغيثان اللَّهِ ويْلك آمن﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له : ويْلك آمنْ بالله وصدِّق بالبعث والنشور وإلاّ هلكت ﴿إنَّ وعدَ اللَّهِ حقٌّ﴾ أي وعدُ الله صدقٌ لا خُلف فيه ﴿فيقولُ ما هذا إلا أساطيرُ الأولين﴾ أي فيقول ذلك الشقي : ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلاّ خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون في الكتب مما لا أصل له قال تعالى ﴿أولئك الذين حقَّ عليهم القول﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار

(١) قال العلماء : ولذلك لم يبعث نبيٌ قبل أربعين . (٢) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٣٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٠ .

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

قال القرطبي : أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله كما في الحديث (هؤلاء في النار ولا أبالي)[١] ﴿في أممٍ قد خلَتْ من قبلهم من الجنِّ والإنس﴾ أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ أي كانوا كافرين لذلك ضاع سعيهم وخسروا آخرتهم ، وهو تعليل لدخولهم جهنم **قال الإمام الفخر** : قال بعضهم : إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصّديق قبل إسلامه ، والصحيحُ أنه لا يراد بالآية شخص معيَّن ، بل المراد منها كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحقِّ فأباه وأنكره ، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه ﴿أفٍ لكما﴾ بأنه من الذين حقَّ عليهم القول بالعذاب ، ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه[٢] ﴿ولكلٍ درجاتٌ ممَّا عملوا﴾ أي لكلٍ من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم ، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية ، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يُظلمون﴾ أي وليعطيهم جزاء أعمالهم وافية كاملة،المؤمنون بحسب الدرجات،والكافرون بحسب الدركات،من غير نقصان بالثواب ولا زيادة في العقاب .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا على النار ... إلى ... فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٩) نهاية السورة

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء ، أعقبه بذكر حال الكفار الفجار في الآخرة ، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة ، تذكيراً لكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان ، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجنِّ الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إلى الإيمان .

اللغة : ﴿الهون﴾ الهوان والذل ﴿الأحقاف﴾ الرمال العظيمة جمع حِقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجَّ ، والأحقاف ديار عاد[٣] ﴿لتأفكنا﴾ لتصرفنا وتزيلنا ، والإفك : الكذب ﴿عارضاً﴾ سحاباً يعرض في الأفق ﴿تدمِّر﴾ تُهلك ، والتدميرُ الهلاك وكذلك الدَّمار ﴿صرفْنا﴾ بعثنا ووجهنا ﴿يَعْيَ﴾ يضعف ويعجز من الإعياء وهو التعب والعجز .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

التفسير : ﴿ويومَ يُعرضُ الذين كفروا على النَّارِ﴾ أي وذكّرهم يا محمد يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم ، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إليها ﴿أذْهبتُم طيباتِكُم في حياتكم الدنيا﴾ في

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٩٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٣ وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبي وأبي السعود وصاحب البحر المحيط . (٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠٣ .

أَلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ * وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

الكلام حذف أي ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً أذهبتم طيباتكم أي لقد نلتم وأصبتم لذائذ الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة قال في البحر : والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب ، والملابس والمفارش ، والمراكب والمواطىء ، وغير ذلك مما يتنعَّم به أهل الرفاهية[1] ﴿واستمتعتم بها﴾ أي وتمتعتم بتلك اللذائذ والطيبات في الدنيا قال المفسرون : المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة ، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة ، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي ، وآثرتم الفاني على الباقي ، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم ، ولهذا قال بعده ﴿فاليوم تُجزون عذَاب الهُون﴾ أي ففي هذا اليوم ـ يوم الجزاء ـ تنالون عذاب الذُلِّ والهَوان ﴿بما كنتُم تستكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الإيمان وعن الطاعة ﴿وبما كنتم تفْسُقون﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله ، وارتكاب الفجور والآثام قال الإمام الفخر : وهذه الآية لا تدل على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر ، وإنما وبَّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قُل من حرَّم زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ ! ! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، وعليه يُحمل قول عمر « لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً ، ولكني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة »[2] وقال في التسهيل : الآية في الكفار بدليل قوله تعالى ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا﴾ وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين ، ولذلك قال عمر لجابر ابن عبد الله ـ وقد رآه اشترى لحماً ـ أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾[3] ! ! ﴿واذكر أخَا عادٍ﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه عادٍ ليعتبروا بها ﴿إذْ أنْذر قومَهُ بالأحْقافِ﴾ أي حين حذَّر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا وهم مقيمون بالأحقاف ـ وهي تلالٌ عظيمة من الرمل في بلاد اليمن ـ قال ابن كثير : الأحقاف جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل ، قال قتادة : كانوا حياً باليمن أهل رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يُقال لها : الشَّحْر[4] ﴿وقدْ خلَتِ النُّذُر منْ بينِ يديه ومن خلفه﴾ أي وقد مضت الرسلُ بالإنذار من قبل هودٍ ومن بعده ، والجملة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هودٍ وبعده ﴿ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله﴾ أي حذَّرهم هود عليه السلام قائلا لهم : بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿إني أخافُ عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يومٍ

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٢ .

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۜ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا

هائلٍ وهو يوم القيامة ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ أي قالوا جواباً لإنذاره : أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو استفهام ، يراد منه التسفيه والتجهيل لما دعاهم إليه ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً فيما تقول قال ابن كثير : استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه[1] ﴿قالَ إنّما العِلمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي قال لهم هود : ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمه عند الله ﴿وأُبلِّغُكُمْ ما أُرسِلتُ بِه﴾ أي وإنما أنا مبلّغٌ ما أرسلني به الله إليكم ﴿ولكنّي أراكُم قوْماً تجْهلون﴾ أي ولكنني أجدكم قوماً جهلة في سؤ الكم استعجال العذاب ﴿فلما رأَوْهُ عارضاً مُستقبل أوْدِيتهم﴾ أي فلما رأوا السحاب معترضاً في أفق السماء متجهاً نحو أوديتهم استبشروا به ﴿قالوا هذا عارضٌ ممطُرنا﴾ أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر قال المفسرون : كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر ، وقُحطوا مدةً طويلةً من الزمن ، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا عارضٌ ممطرنا ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ أي قال لهم هود : ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر ، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم فسَّره بقوله ﴿ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ﴾ أي هو ريحٌ عاصفة مدمّرة فيها عذابٌ فظيع مؤلم ﴿تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ بأمرِ ربِّها﴾ أي تُخَرِّب وتُهلك كل شيء أتت عليه من رجالٍ ومواشٍ وأموال ، بأمره تعالى وإذنه قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد ، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ، ثم تضربهم على الأرض ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، فهي التي قال الله فيها ﴿تدمّر كل شيء بأمر ربها﴾ أي تدمّر كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها ، والتدميرُ الهلاك[2] ، وفي الحديث عن عائشة قالت : (كان ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه ، فقلت يا رسول الله : الناسُ إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية ؟ فقال يا عائشة : ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عُذّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿هذا عارضٌ ممطرنا﴾[3] ﴿فأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم﴾ أي فأصبحوا هلكى لا تُرى إلا مساكنهم ، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصياً مجرماً قال الرازي : والمقصود منه تخويف أهل مكة[4] ، ولهذا قال بعده ﴿ولقد مكنّاهم فيما إنْ مكّناكُم فيه﴾ « إنْ » نافية بمعنى « ما » أي ولقد مكّنا عاداً في

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٢) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠٦ (٣) أخرجه البخاري. (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ٢٩ .

وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم

الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة ، والسَّعة ، وطول الأعمار[1] ، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب ، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم ﴿فما أغْنى عنهم سمْعُهم ولا أبصارهُم ولا أفئدتُهم منْ شيءٍ﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله قال الإمام الفخر : المعنى أنّا فتحنا عليهم أبواب النعم : أعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبَر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ، فلا جرم أنها لم تغن عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿إذْ كانوا يجحدون بآياتِ اللهِ﴾ تعليلٌ لما سبق أي لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزَّلة على رسله ويكذبون رسله ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القُرى﴾ تخويفٌ آخر لكفار مكة أي ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم ، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط ، والمراد بإهلاك القرى إهلاكُ أهلها ﴿وصرَّفنا الآياتِ لعلهم يرجعون﴾ أي وكررنا الحجج والدلالات ، والمواعظ والبينات ، أوضحناها وبيَّناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم ﴿فلولا نصَرَهُم الذين اتَّخذوا من دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً﴾ أي فهلاَّ نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم ، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب ؟ ! و « لولا » تحضيضية بمعنى هلاَّ ومعناها النفي أي لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿بل ضلُّوا عنهم﴾ أي غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم ، فإن الصديق وقت الضيق قال أبو السعود : وفي الآية تهكمٌ بهم كأنَّ عدم نصرهم كان لغيبتهم[2] ﴿وذلك إفْكُهُم وما كانوا يفترون﴾ أي وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافتراؤهم على الله ، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله وشفعاء لهم عند الله ﴿وإذْ صرفْنا إليكَ نفراً منَ الجنِّ يستمعون القرآن﴾ أي واذكر يا محمد حين وجهنا إليك وبعثنا جماعةً من الجن ليستمعوا القرآن قال البيضاوي : والنفر دون العشرة ، روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن[3] ﴿فلمَّا حضرُوه قالوا أنْصِتوا﴾ أي فلما

(١) ذهب بعض المفسرين الى أنَّ « إن » زائدة والمعنى ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أي في مثل الذي مكناكم فيه ، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم ؟ وإنما لم يؤت بـ « ما » فيقال:فيما مكّناكم فيه، دفعاً لثقل التكرار ؟
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٩ . (٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٤١ .

مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا

حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعضٍ : اسكتوا لاستماع القرآن قال القرطبي : هذا توبيخٌ لمشركي قريش ، أي إن الجنَّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرّون على الكفر[1] ﴿فلمَّا قُضيَ ولَّوا إلى قومهم مُنْذرين﴾ أي فلما فُرِغَ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا قال الرازي : وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم ، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلاّ وقد آمنوا[2] ﴿قالُوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى﴾ أي سمعنا كتاباً رائعاً مجيداً منزّلاً على رسولٍ من بعد موسى قال ابن عباس : إن الجنَّ لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام[3] ﴿مصدِّقاً لما بين يديه﴾ أي مصدّقاً لما قبله من التوراة ﴿يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحقِّ المبين ، وإلى دين الله القويم ﴿يا قومنا أجيبوا داعيَ اللهِ وآمنوا به﴾ أي أجيبوا محمداً ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدِّقوا برسالته ﴿يغفرْ لكم من ذنوبكم﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿ويُجركم من عذابٍ أليمٍ﴾ أي ويخلِصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلمٍ ﴿ومنْ لا يُجِب داعيَ اللَّهِ فليس بمعجزٍ في الأرض﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله ، فإنه لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ﴿وليسَ له من دونه أولياء﴾ أي وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أُولئك في ضلالٍ مبين﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسرانٍ واضح ، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن ، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَوَلَمْ يرَوا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرض﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السمواتِ والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿ولم يعْيَ بخلقهنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهنَّ ﴿بقادرٍ على أن يُحْيي الموتى﴾ ؟ أي قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء ، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء ؟ ﴿بلى إنه على كل شيء قديرٌ﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، فكما خلقهم يعيدهم ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا على النَّار﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة ، وذكّرهم يوم يُعرضون على النار فيقال لهم ﴿أليس هذا بالحقِّ﴾ ؟ أي أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقٌّ ؟ ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٢١٠ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٢ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٧٠ .

ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

تبصرون﴾ ﴿قالوا بلى وربّنا﴾ أي قالوا بلى وعزة ربنا ، أكّدوا كلامهم بالقسم طمعاً في الخلاص قال الفخر الرازي : والمقصود بالآية التهكمُ بهم ، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم : ﴿وما نحن بمعذبين﴾[1] ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فيقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم « نوح وإبراهيم وموسى وعيسى » ﴿ولا تستعجلْ لهم﴾ أي ولا تدع على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً واحدة من النهار ، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بلاغٌ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله .

تنبيه : قال المفسرون : « إن الجنَّ كانوا يسترقون السمع ، فلما حُرست السماء بالشهب ، قال إبليس : إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض ، فبعث سراياه ليعرف الخبر ، فذهب ركبٌ من نصيبين - وهم أشراف الجن - إلى تهامة ، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا الى قومهم منذرين فدعوهم إلى الإيمان ، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التعجيز ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أمرٌ يراد منه التعجيز .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يدعو . . وهم عن دعائهم﴾ ومثله ﴿وشهد شاهد﴾ .

٣ - الطباق بين ﴿آمن . . وكفرتم﴾ وبين ﴿ينذر . . وبشرى﴾ .

٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ ثم قال ﴿حملته أُمه كرهاً﴾ فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم .

٥ - الطباق بين ﴿حملته . . ووضعته﴾ .

٦ - صيغة الحصر ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ .

٧ - الاستعارة ﴿ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا﴾ استعار الدرجات للمراتب ، للسعداء والأشقياء .

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٤ .

٨ ـ الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ أي يقال لهم أذهبتم .

٩ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ ثم قال ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم .

١٠ ـ توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وحاق بهم ما كانوا يستهزئون﴾ ﴿وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف »

* * *